# التدريس والبحث والنشر بالعربية في التعليم العالي
# (عقبات مفترضة وحلول)

الباحث: أ.د. علي توفيق الحمد

# التدريس والمبحث والنشر بالعربية في التعليم العالي
# (عقبات مفترضة .... وحلول)

تمهيد

أن تعريب التعليم في بلاد هي عربية، لا تستحق – في نظري – أن تكون قضية شاغلة، ولا تستأهل تخصيص بحث فيها، أو جلسة أو ندوة حولها، لأنها قضية مبدئية لا تحتمل النقاش ولا تقبل الجدل أو الخلاف ولا تحتاج إلى دفاع أو إقناع، فهي قضية وجود، ومسألة بقاء واستمرار لهذه الأمة، لأن اللغة إحدى مقومات الأمة. وأمتنا اليوم مستهدفة من كل جانب، والعربية لغة ديننا الحنيف الذي به نعتصم وإليه نحتكم ولغة حضارتنا وتراثينا اللذين بهما نفاخر. فأنا واثق من أن أياً منا لا يرضى أن تُهز أو تُعرَّض للضعف أو الاستهانة والاستخفاف.

وأنا أخشى أن نشغل أنفسنا في قضية مبدئية. لا أشك في أن عربياً واحداً منتمياً يمكن أن يقبل لنفسه أن يكون في صف معاد لها من حيث المبدأ، ولكني أفهم أن بعض المتخصصين لهم أسباب آنيّة متصورة قد تجعل تعريب التعليم الجامعي – في نظرهم– أمرا فيه مخاطرة أو تراجع أو خسارة، ومثل هذا الموقف يستحق المناظرة والمحاججة والأدلة، شريطة ان يكون الطرفان موضوعيين يحتكمان إلى المنطلق والعقل والموضوعية، ولديهم الشجاعة والاستعداد أن يقبلوا الرأي الآخر ويجربوه، فقد يكون فيه حل اللغز والخلاص.

وحتى يصبح العلم عربياً ونشاطاً عربياًن فلا بد من نقله إلى لغة العرب، ودرسه بلغة العرب، ونشر بحوثه ونظرياته في لغة العرب.

وهذا يسلمنا إلى قضية كبيرة خطيرة، لا بد من تناولها، تصلح أن تكون تحت العنوان الآتي:

لماذا تعريب التعليم الجامعي؟ ولماذا البحث والنشر بالعربي.

هذا سؤال قد يطرح، ويطرح فعلاً، لأن طارحيه يرون أن المهم أن نتعلم وننشر العلم، ولا يهمهم الوسيلة – وهي اللغة – بل إن بعضهم يرى أن العربية لا تسعفه في تدريس علومه أو تدوين نتائج بحوثه ونظرياته. ويرى آخرون أن متابعة العلم بلغة أصحابه – الأجنبية – أدقّ، وتجعلنا على صلة مباشرة بلغة أصحابه وبتطوره.

أما الحجة الأخيرة فإن فيها وجاهة، وأنا لا أرضى أن تنقطع عن لغات العالم المختلفة، وبخاصة العالمية منها، ولكنْ بالإمكان حلّ هذه القضية، وسيعرفه البحث في صحائفه الأخيرة.

وأما الحجة الثانية – التي قبْلها–، وهي عدم طواعية العربية أو إسعافِها له لغة تدريس وبحث ونشر، فهذه ستطرقها في القسم التالي من هذا البحث تحت عنوان "معوقات تعريب العلوم ولغة تدريسها – مشكلة كبرى"، وسنفصل القول في قدرة العربية على تحمل العلوم ومفاهيميها ونظرياتها، وندلل على ذلك برأي العلم والعلماء والتاريخ والعقل والتجربة، ويبقى بعد ذلك أن عليه أن يبذل جهداً في إتقان العربية وممارستها واستخدامها إن كان جاداً مخلصاً، وسيرى بعد ذلك أن المشكلة ليست قائمة. وأرجو أخيراً أن أطرح هذا السؤال: كيف يعبر كل من الياباني أو الفيتنامي أو البولندي أو الروسي عن فكره وعلمه؟ الجواب واضح مفهوم، أمْ أنّ كلّ تِلْكُمُ اللغاتِ علمية وتسعف أبناءها ما عدا العربية، يعني – في نظرهم – أنها قاصرة وغير علمية، ودون لغات الأرض كلها، فيا للعجب ويا للعار!!

وتبقى الحجة الأولى، وهي أنّ المهم أن نتعلم وننشر العلم، ولا يهمهم الوسيلة.

وهنا أردّ فأقول: نعم، إن التعلم ونشر العلم هو المهم، ولكن لا تقل الوسيلة – اللغة القومية – عن ذلك أهمية.

ولتأكيد هذه الأهمية لا بد من التفصيل إضافة إلى ما تقدم في التمهيد لهذا البحث.

إن لكل أمة قواما وشخصية، ويحب الفرد أو الأفراد والجماعات أن يكون لهم شخصية، وأن يكون لها ذات متميزة، ونحن – العرب – لسنا بِدْعا بين شعوب الأرض، نعتز بأنفسنا وديننا وقوميتنا ووجودنا واستقلاليتنا، والانتماء

عنصر أساس لاستمرار الصلة بين كلّ منّا وأمته، فأين الانتماء الذي هو وليد الإخلاص والغيرة؟! أن الانتماء ترجمة لتمسك الفرد بالجماعة، فإن كنا قانعين قابلين بجماعتنا وأمتنا، فيجب بالضرورة ألا نخجل، بل نعتز بانتمائنا لهذه الأمة.

ومن مقومات وحدة الأمة ووجودها: الدين والأرض واللغة وغيرها، أن كل عربي يثور لدينه، ويثور لأرضه ووطنه، فما باله لا يثور للغته ولا يغار عليها ولا يغضب لها؟

إنّ اللغة مكملة لهويته القومية العربية، فإنْ أهملها أو تغاض عنها، تهلهلت هذه الهوية، وأصبح انتماؤه مشكوكاً في سلامته، بل اتّجَهَ بفكره وترجمان فكره – اللغة – إلى أمة أخرى وقوم آخرين، ومهما كان الأمر فلن يستقر أو يرتاح في انتسابه الجديد، وسيبقى يحس بالغربة ويعاني منها، ولو فعل ذلك لكان فعله نكرانا وجحداً.

والأمر السوي أن يزداد حنين الإنسان إلى أمته بكل مقوماتها حتى لو هاجر عنها وابتعد، ما دام يتمتع بصدق الانتماء والعزيمة والوفاء، وخير مثل لذلك ما أبدعه أدباء المهجر بلغتهم القومية في ديار المهجر.

يقول الأستاذ محيي الدين عزوز فيهم: "وبهذا اللسان – العربي – أوجدوا لنا أدبا مهجريا يعد دُرّة ناصعة في جبين ثقافتنا المعاصرة. ولم يكن تمسك المغتربين بعربيتهم صادراً عن جهل بلغة القوم، لأن البعض (كذا) منهم أَلّف بلغة المضيفين كتبا على غاية من الروعة. فالذي حملهم على اتخاذ موقفهم هذا هو قبل كل شيء شعورهم الحادّ بأنهم أمناء على الروح العربية، وبأنهم حُرّاس لغتها التي تعبر عن الجانب الوجداني والحضاري من حياتهم(1).

فالانتماء يجب أن يكون ممارسة، وألا يفرّط بشيء من مقومات الأمة. وأفهم أنّ من حباه الله بالعلم فإنه يدرّس وينشر ويؤلف لإفادة الأمة والإنسانية، فكيف يفيد أمته وغالبيتُها لا تتقن اللغة الأجنبية؟ فأين إسهامه في رفعة أمته، ومتى سيصبح العلم زاداً يومياً لأبناء الأمة إنْ بقي بلغة غريبة؟ وكيف ستحقق ديمقراطية التعليم أن لم ننشره بلغة أبناء الأمة.

وقد يقول قائل: ومن سيطلع على بحوثي من العلماء أن نشرتها بالعربية، وكيف أحقق لنفسي الشهرة والانتشار؟ وأرد فأقول: عن أبناء جنسك من المهتمين سيطلعون ويفيدون مما تنشرن وأضيف فأقول: أن البحث المتميز يبحث عنه المختصون والمهتمون في العالم مهما كانت لغته، ولديهم وسائلهم. وهل ينشر علماء ألمانيا أو اليابان أو روسيا بالانجليزية؟! الجواب: لا، ومع ذلك فإن بحوثهم تنتقل على المهتمين في كل بلاد الدنيا التي تهتم بهذا التخصص، إلى انكلترا وأمريكا وغيرها.

ولا ننسى أن اللغة من أهم مقومات الأمة وعناصر وحدتها واستغلالها، غذ تتحدد شخصيتها وكيانها بمقومات – ذكرناها – منها اللغة، وقد أورد الأستاذ الحبيب المخ رأيا لفخته العالم والفيلسوف الألماني، فهو يرى أن اللغة جهاز الاجتماع في الإنسان، وأن اللغة والأمة أمران متلازمان متعادلان(2).

كما أورد رأيا آخر للفيلسوف ماكس نوردو يؤد فيه أن الفرد يندمج في المجتمع باللغة، وبها يستطيع أن يصبح عضوا فيه، وبها يتلقى تراث الأمة الفكري والشعوري والأخلاقي والاجتماعي القديم والمعاصر، وإنّ حرمان شعب من الشعوب من لغته يجعله يشعر بالذي والمهانة(3).

فلا أظن أحداً يرضى أن ينسلخ من أمته، ويسبب لها الشعور بالذل والمهانة، أو يرضى لنفسه ذلك.

وإن التنكر للغة الأمة يؤدي إلى تشويه ثقافتها، وانطلاقاً من هذا الفهم دأب المستعمرون على تجهيل الشعوب بلغاتها القومية، وحاربوها، وأحلوا لغاتهم محلها، هذا ما فعلوه في الجزائر، وهذا ما حاولوه في موريتانيا، وفي مصر على أيدي البريطانيين والفرنسيين قبلهم.

وينبه الأستاذ محمد عزيز الحبابي إلى خطورة الأمر قائلاً: "إنّ أمة بدون لغة قومية أمة لا شخصية، قد يكون لها وطن، ولكنها أشبه بسيارة يسوقها من لا يحسن قوانين السياقة، فهي ومَن بداخلها في خطر دائم.....

وإننا ملزمون بأن نعيد إلى شعوبنا لغتها لتكتمل حريتها، بل لتسترجع شخصيتها، ولن ننجح إلا إذا أصبح الجميع متحققا من علاقة الحياة، كل الحياة باللغة، فالدين لغة، والاقتصاد، والاقتصاد لغة، والفن لغة، والشغل لغة، يعني أن كل عمل لا يتم مجتمعياً إلا بالتواصل الكلامي – باللغة(4).

ولعل ما يجلو الصورة ويدعو إلى الصحوة المرجوة العبارة التي أوردها الأستاذ محمد مزالي في افتتاحية مجلة الفكر على لسان فوشي وزير تربية قومية فرنسية – أسبق – صرح بها لصحيفة بارى ماتش قائلاً: "لقد خسرنا إمبراطورية استعمارية فيجب أن نتدارك ذلك بتشييد صرح إمبراطورية ثقافية(5).وها هي دول الاستعمار كلها تحاول السيادة وإشادة صرح إمبراطوريات ثقافية لها بسبل شتى وأساليب مختلفة، حتى تضمن تبعية الشعوب الثقافية والفكرية لها، ولعل خير وسيلة في تشجيع مجموعات من مثقفي تلك الشعوب على الارتباط بها والتعليم برطانتها والتفكير بلغتها، لعل هؤلاء – أو بعضهم – يحقق لها ما تريد.

ولا أرى ضيراً في هذا المجال من الأخذ عن الشرق أو الغرب، ومن معرفة لغاتهم وإجادتها، والدراسة على علمائهم ومؤلفاتهم، على أن ينشر أحدنا كلّ ما حصله على أبناء قومه بلغتهم، ليفهمه مستمعون يؤلّفون الكثرة من مواطنيه، وإلا "فسيبقى العلم للجامعيين تسلية ومتعة شخصية إذا لم يستهدف خدمة المواطنين"(6).

وتدريس العلوم بالعربية يخلق لدى الطالب اهتماماً والتصاقاً بأمته ولغتها وفكرها ومشكلاتها ومستقبلها، ويقوّي انتماءه واعتزازه وأمله وثقته في مستقبلها، واحترامه لها ولمواطنيها ولقدرتها وحيويتها. أما العكس – تلقينه العلوم في بلاده العربية بلغات أجنبية – فإن له أوخم العواقب على نفسيته وشخصيته، وقد يؤدي به ذلك إلى الاستخفاف بهذه الأمة ولغتها ورصانة مجتمعها وقدرتها على التحدي والبقاء، إضافة إلى تأثيره مجتمعها السيئ على تحصيله ومشاركته وفاعليه(7).

وثمّ أهمية كبرى لتعليم العلوم كلها باللغة العربية، وبالعربية الفصيحة تحديداًن وتكمن هذه الأهمية في أننا نعاني ونشكو من ضعفٍ وعزوفٍ عن استخدام المستوى الفصيح للغة العربية في مجتمعاتنا، حتى أننا نحس أنها غريبة عنا، ولا صلة لنا بها.

وأقول: إن تدريس العلوم باللغة الأجنبية لن يترك مجالاً لاستخدام اللغة الفصيحة، التي يجب أن تكون لغة الدرس والمحاضرة والبحث، لأننا في حياتنا العامة نصطنع اللهجات العامية، ويزداد الأمر خطورة بأننا نحصر اللغة الفصيحة بين فكي الكماشة: اللغة الأجنبية في الدرس والبحث، والعامية في الحياة والأمور العامة، وننمي مهارتنا بالأجنبية من جهة، وتنمو قدرتنا في العامية من جهة أخرى، وبذلك يصبح الخطر على الفصيحة مزدوجاً فالثنائية اللغوية من جانب، والازدواجية من الجانب الآخر. وأن استمرار اللغة الأجنبية واللهجة العامية سيكون – بلا شك – على حساب اللغة الفصيحة وقدرتنا في استخدامها.

إذ إنّ كلاًّ من العامية والأجنبية والفصيحة لها نظام لغوي مختلف – بدرجة ما – عن الأخرى، وقد اكتسبه الفرد وحفظه في عله وقدراته، وإن نمو واحدة واستخدامها أكثر يكون على حساب ضعف الأخرى وضمورها، وضعف القدرة على استخدامها، واستمرارُ هجر الفصيحة وعدمُ إتاحة المجال لاستخدامها – بينما نفسح المجال للمستويين الآخرين – سيؤدي بالتالي على ضمورها وغربتها، وربما عجمتها على أبنائها.

ويؤكد هذا الرأي ما ذكره الأستاذ محمد الهادي الطرابلسي إذ قال: "فاعتبرت الازدواجية كالثنائية من المظاهر التي تهدد كيان العربية، واعتبر العمل على القضاء على الظاهرتين عملاً على إحياء العربية.... فإنه – من طبيعة الأشياء، لا من اختلاف المواقف – تَبَيَّنَ بلا منازع أن الثنائية والازدواجية معاً، يهدد أن كيان العربية في بعض مظاهرهما وصور تطبيقهما. فأضحى القضاء على حدة هاتين القضيتين من مقومات حياة اللغة. فنستطيع أن نقول بناء على هذا: أن مفهوم حياة اللغة ينحصر في الأذهان عادة في استخدامها والتعامل بها، وفي تجردها من كل ما يهدد كيانها من العوامل الخارجية(8).

ولعلّه ليس من قبيل المصادفة أو العفوية أن الاستعمار الانجليزي في مصر – مصلاً – كان يدعو إلى أبعاد الشعب عن لغته العربية الفصيحة، وترغيبه ودفعِهِ إلى العامية حينا، وترغيبه بالانجليزية حينا آخر، إنّهم – بلا شك – كانوا يدركون العلاقة العكسية بين نمو العامية والأجنبية من جهة، وضمور الفصيحة وانحطاطها من الجهة المقابلة.

وفي خطورة العامية على الفصيحة يقول الأستاذ محمد عزيز الحبابي: "طغت الدارجات المحلية، فأصبحت اللغة العربية الحق لغة الأبراج العامية، وأضحت وَقْفاً على قلة القلة من النخبة تستعمل في محافل خاصة(9).

لان أعداء الأمة ولغتها أرادوا للعربية الفصيحة أني هجرها أهلها في حياتهم العامة، ولا باس أن تبقى لغة المسجد والعبادة، تمهيداً للانقضاض عليها وإزالتها بعد ضعفها وضمورها، هكذا كانوا يظنون، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين، فقد تعهد سبحانه وتعالى بحفظها.

ومما يجعل موضوع تعريب لغة التعليم مُلِحًّا، ويجعلنا أكثر اهتماماً ووعياً وإصراراً على تحقيقه قضية علمية أخرى، ألا وهي علاقة اللغة بالفكرة، إ إنّ تطور اللغة يؤدي إلى اتساع الفكر، وكذلك فإن ضمورها وضعف مستوى استخدامها وضعف قدرة مستخدمها تؤدي على ضعف نتاج الفكر.

"وقد أجمع العلماء على أن الصلة وثيقة بين الفكر واللغة، والعلاقة بينهما جامعة لكل خصائص اللغة والفكر معاًن فالدماغ يضمن تلاؤم الفكر مع الظروف في كل لحظة من حياة الإنسان، ويضمن اتصال الفكر بالواقع في غير انقطاع بواسطة اللغة وبواسطة الحواس الخمس، فيعبر الإنسان عن ذلك باللغة (10).

فالدماغ عضو التفكير والتعبير عن الفكر بإشارات، هذه الإشارات والرموز قد تكون لغة.

ويرى فاندريس أن الكلام والإشارة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في بادئ الأمر بالفكر، ولكن اللغة السمعية تنمو وتتطور بفضل تفوقها من الناحية العلمية، وأن تطور اللغة هو انعكاس لتطور المجتمعات (11).

وعن هذه العلاقة وقوتها، وتأثير أحدهما بالآخر يذهب د. نايف خراما إلى أنه "يبدو من الأسلم القول بأن اللغة والفكر يعتمد كل منهما على الآخر على حد بعيد أو كبير، فنحن لا نستطيع التفكير أكبر أو أبعد من قدرتنا اللغوية، كما أننا لا نستطيع أن ننطق بما لا نستطيع التفكير فيه(12).

ولذا فإن في تنمية قدرتنا اللغوية تنمية لأفكارنا وإغناء لها، وهذا واضح فإن اكتسابنا اللغة يتم معه اكتساب أفكار ومفاهيم مدلوله، وكذا فإن ضعف القدرة على التعبير واللغة يجعل الفكر أقل إنتاجا وفي حالة استرخاء.

فاللغة على هذا المفهوم ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل هي ذاتها التي تشكل تلك الأفكار بما يكتسبه الفرد معها من أفكار ومعان ومفاهيم.

ويذهب العالم الفيلسوف الألماني فختة إلى أن لغة أمة من الأمم هي قوتها الطبيعية، إن اللغة طاقة ووسيلة فكرية تبعث الجد والنشاط، فهي وعاء الأفكار وصورة الأمة في وجدانها وعاداتها وتقاليدها(13)، فهل ترضى أمة لها شخصية واعتزاز قومي أن تكون صورة وجد أنها وتقاليدها بلغة أجنبية غريبة عنها، لها حياة ونظام غريب عن هذه الأمة.

ويؤكد هذا الترابط بين اللغة والفكر الفيلسوف الفرنسي دى بونالد بقوله "الفكر والكلمة جسم واحد، لا يحصل فكر دون أن تحدث لغة، ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكراً(14).

فاللغة وسيلة لتثبيت الأفكار وتخريجها ونقلها على أفراد المجتمع، فهي تؤثر في الفكر ويؤثر فيها، وتشحذه، متى كانت القدرة على استخدامها جيدة.

ويرى د. إبراهيم السامرائي أن "من المعلوم في علم اللغة الحديث أن اللغة والفكر مادة واحدة، وليس من سبق لأحدهما على الآخر.... والمسألة إذن أن يفهم العرب أن لغتهم عنوان حضارتهم..... وعلى هذا كانت العناية باللغة انتصاراً للكفر(15).

هذه دعوة إلى ضرورة عناية العرب بلغتهم لما لها من صلة وأثر في الفكر، ولا أدري كيف ستستطيع أمة بناء حضارة خاصة قومية بلغة غريبة، ولسان لا يعبر عن آمال القوم ولا يمتّ إليهم بصلة.

ويؤيد الأستاذ الحبيب المخ هذه الصلة والعلاقة بقوله: "اللغة وسيلة رمزية للتفكير وتبادل الأفكار والتخاطب، وبدونها ينحط التعبير والتفاهم إلى مستوى المدركات الأولية المحسوسة والانفعالية. وينقل رأياً للمرحوم محمد المبارك: إن اللغة ليست فقط واسطة للإبلاغ، ولكنها هي الفكر نفسه، فلا لغة بدون فكر، ولا فكر بدون لغة، ثم إن نظرة الإنسان إلى الكون إنما تحكم ضبطها اللغة التي يتكلمها الإنسان(16).

فعلى هذا الفهم؛ فالإنسان يدرك الكون وموجوداته من خلال لغته التي حصّل بها ثقافته، فثقافته محصلة للغة التي يستخدمها، وبالتالي فإن فكره يكون متأثرا بثقافة اللغة التي يستخدمها، وهو موقف دقيق خطير.

ويرى محيي الدين عزوز أن "اللغة ليست شكلاً فقط، بل هي مضمون أيضاً، والمضمون أسبق من القالب اللفظي، لأن الإنسان يفكر ثم يعبر عن أفكاره بواسطة اللغة، فهي أداة تعبير (17).

وقد أدرك العرب القدماء العلاقة المعقودة بين اللغة والفكر، فتحدث فيه الجاحظ، وابن قتيبة، والنقاد القدماء، ومن أجمل ما جاء عنهم، قول الخفاجي "كلام الإنسان ترجمان عقلة، ومعيار فهمه، وعنوان حسه، والدليل على كل أمر لولاه لخفي عنه(18).

فاللغة بنية سطحية ظاهرة لأفكار الإنسان العميقة المختزنة في عقله، وكذا فهي تدل على مقدار فهمه ووعيه وحسه.

وقال الأستاذ محمد عزيز الحبابي: "التعبير حسي، أما المعنى فيرمي إلى التجرد، لأنه مجموعة مفاهيم..... والتفكير واللغة وجهان لواقع واحد" (19)، وهذا يوافق ما ذكرناه، فاللغة في واقعها صورة حسية محسوسة للمعاني والأفكار الذهنية المجردة.

وقد ألفنا معتقدات معينة عبرت عنها لغتنا بتعابير استقرت، فأصبحت ثقافة لنا ولمجتمعنا.

ونتيجة لما سبق سرده، نقرر أن اللغة أداة التفكير والتواصل، وتكسب الإنسان مدلولات وثقافة، لها أثر في فكره.

وكيف نريد من لغتنا الحياة والانتعاش والقدرة بلا استعمال، ويؤكد د. محمد سويسي هذا المعنى بقوله "وإنما تحيا اللغات بالاستعمال، وبمسايرة التطور الثقافي والحضاري والاجتماعي(20).

وَمَن الجديرُ باستعمالها والذي يجب أن يضمنها علماً وفكراً سوى العلماء المتخصصين؟ ليمارسوها ويزاولوا تدريسهم وبحثهم بها.

واللغة ووفاؤها بالتعبير عن العلوم المختلفة تتوقف على مهارة مستخدمها وبراءته، وهذه المهارة وتلك البراعة تحصلان بالممارسة، فإن استخدَمْناها حكمنا عليها بالحياة، وأمددناها بالنشاط والدم الجديد، وإن هجرناها ضمرت وماتت، كما ذهب إلى ذلك د. سويس بقوله: "واللغة تتطور بتطور الحياة، وإلا فإن ما وقفَ وتحجرَ اضمحلّ وصار إلى الفناء(21).

وذكرنا رأيا شبيها قبل قليل: أن مفهوم حياة اللغة ينحصر في الأذهان عادة في استخدامها والتعامل بها.

فاللغة ظاهرة اجتماعية حية تحيا بحياة من يتعامل بها وتنشط بنشاطه، ويتوقف نموها وحيويتها على درجة استخدامها وترويضها على تحمل معان علمية ومفاهيم مختلفة.

وذكر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله "أن اللغة كائن حي تعيش وتنمو بالتغذية المستمرة والعمل الجدّي الدائب (22).

وإن ما يدعيه بعضنا من ضعف اللغة وقصورها إدانة لنا أنفسنا، "إذ إن اللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالإهمال، وموت اللغة دليل على موت أهلها مادياً أو فكريا أو حضارياً(23).

وإلى هذا أشار الأستاذ محمد عزيز الحبابي إذ قال: "اللغة صورة صادقة عن مدى تقدم أو تأخر الناطقين بها. فالنمو العام في أمة مرتبط بنمو لغتها(24).

ولذا فإن السبب في قوة اللغة وازدهارها هم أهلها، والسبب في نكستها وتأخرها هم أهلها، فبهم تَقْوى وبهم تضعف، فالقضية كامنة فينا نحن، الذين نمارى ونجادل في أهمية تعريب لغة العلوم، وإن استخدام لغتنا القومية لا محيد عنه، فكلما جرؤ المثقفون على القيام بمهمتهم في استخدام العربية لغة بحث وعلم وتدريس تَقَوَّت اللغة، ونَمَّت انتشارَ الثقافة، وأسهمت في الرقي الحضاري، فحياتها لدليل على انتشار الثقافة وازدهارها، فأين واقعنا من هذا إذن؟!

ويؤكد الأستاذ الحبابي هذا المظهر بقوله: "إن تاريخ اللغة في تقلباتها، ليس إلا انعكاساً لتاريخ الأمة، فلا أمة بدون لغة، ولا حياة لأية لغة يحجر على مستهلكيها أن يجتهدوا ليبدعوا فيها(25).

فلا إبداع حقيقي نافعاً إلا باللغة القومية، ولا حياة لنا إلا بها، فهي سجلٌّ وتاريخٌ لتقدمنا وانحطاطنا، ويزعم زاعم أننا تقدمنا ونهضتنا، ونحن عالة على لسان غيرنا وثقافته.

ويقول الأستاذ عبد القادر المهيري: "فالخطر كل الخطر على اللغة أن يضيق استعمالها، فاللسان لا يبلى إلا من قلة الرواج والاستعمال(29)، فهذه كلها شواهد صارخة على أن إهمالنا لغتنا وتركها، وعدم إقحامها في ميادين العلوم المختلفة لتتسع لنظرياتها ضَعْفٌ بنا، وانهزامٌ وتبعية، ونحكم بأنفسنا ونضع طوق المشنقة في عنق لغتنا بأيدينا، ثم نبكي أو نتباكى بأنها لا تفي بمتطلبات العصر وليست علمية!!

ويرى الأستاذ محمد الهادي الطرابلسي أن "حيوية اللغة تقتضي ما يأتي:

1. حيوية نظامها: وتتمثل في قابلية اللغة للاستمرار في الحياة.
2. حيوية مستعملها: وتتمثل في العزم على إحيائها، والعمل عليه دائماً وأبداً، لأن عملية الإحياء هذه لا تقف عند حد,
3. حيوية جوارها: ونعني بالجوار الإطار الحضاري الذي تعيش فيه اللغة (27).

وسنعرض في موطن لاحق شهادات علماء ومستشرقين لحيوية اللغة العربية ونظامها الصوتي والصرفي والتركيبي والسياقي والبياني.

وكذلك فإن ثَمَّ جواراً حضارياً محيطاً باللغة الآن، لو أُحسن استثماره وتوظيفه.

ولم تبقى سوى حيوية مستعمل اللغة، فنحن تنقصنا هذه الحيوية، وتفتقر على العزم على تنشيط العربية وتطويرها.

ويعرض الأستاذ محمد الهادي الطرابلسي(28) وسائل العلاج، والأسس التي بموجبها يتم تطوير العربية، فينبغي ان تؤول الكلمة في هذا الأمر إلى علماء اللغة المختصين، وغلى أهل التفكير وعلى رأسهم أصحاب الخيارات السياسية.

ويمكن حصر هذه الأسس في قضية عامة أساسية، هي ممارسة اللغة، وتمر الممارسة – حسب رأي الأستاذ الطرابلسي – بأربع مراحل:

1. تدريس اللغة.
2. الإنتاج القيم فيها.
3. العمل بها في الإدارة (والحياة العامة).
4. إجراء البحوث العلمية في صلبها.

ولعل واقع ممارستنا اللغوية لا يشير على توظيفها على الصورة المرضية في هذه المراحل الأربع. ومما يعين أيضاً على ممارستها نزع مركب النقص العالق في نفوس العرب وأذهانهم.

وبإدخال اللغة حيز الممارسة والاستخدام والتطبيق، يمكن تقوية الوازع الديني والحسّ القومي، وشعور الانتماء والاعتزاز، وتماسك الشخصية واحترام الأمة ولغتها وتراثها، والتخلص من عقدة مركبات النقص.

وعند إيماننا وقناعتنا الصادقة بأهمية استخدام اللغة القومية وممارستها لتحقيق غاياتنا، قد يشار السؤال التالي:

- هل العربية لغة علمية؟ وبعبارة أخرى:
- هل العربية صالحة أو قادرة على استيعاب العلوم والتعبير عنها، والوفاء بمتطلباتها التعبيرية والبيانية والدلالية؟ حتى تصلح للممارسة والاستخدام.

هذا سؤال كبير، لا أفضل أن أجيب عنه إجابة سريعة، لأنها قد توصف بالتعصب أو الهوى والميل العاطفي.

ولكن أوثر عرضه بأناة وهدوء، تحت عنوان جديد، هو: العقبات تعريب العلوم ولغة تدريسها، مشكلة كبرى".

**عقبات تعريب العلوم ولغة تدريسها والبحث والنشر**

**مشكلة كبرى**

عن محاولة الإجابة عن السؤال السابق تضعنا أمام قضية جوهرية كبرى، وهي صلاحية العربية لنقل العلوم وحملها، ووفاؤها في التعبير عن مفاهيمه، وقدرتها على استيعابه. وبعبارة أخرى، كما أسلفنا، هل اللغة العربية لغة علمية؟

سأتناول الإجابة عن هذا السؤال الكبير الخطير من زاويتين:

**(أ) الأولى: الزاوية العملية التجريبية:**

فقط قالوا: "التجربة أكبر دليل وبرهان".

فهل جرّبنا أن تكون العربية لغة للعلم ووعاء له؟

وماذا كانت النتيجة

وللإجابة عن هذا السؤال أو السؤالين، أقول: أن العربية عريقة قديمة، استخدمت في عصر الحضارة العباسية لغة للعلم والحضارة واستوعبتهما فكتب أسلافنا بالعربية وبها ألفوا، ووفت العربية بما عهد إليها، وعبرت ودلت على المفاهيم المختلفة (الفلسفية والرياضية والطبية والفكية وغيرها) دلالات كافية مقنعة، واستوعبت علوم اليونان والرومان وغيرهم، واستوعبت أفكار العلماء العرب، يشهد لها تراث عظيم واسع خلفه أجدادنا في فروع المختلفة، وبها وصلت هذه العلوم إلى أوروبا الحديثة.

وفوق هذا كله فقد استوعبت نظام دولة جديدة، بتشريعاتها الدينية والدنيوية، ألا وهي الدولة الإسلامية بما لها من نظم وتشريعات ضمها القرآن الكريم باللغة العربية، إضافة على أن لها تاريخاً طويلاً يدل على أنها لغة وفت – وهي على استعداد أن تفي– بما يستجد وما يطرأ من مفاهيم وأفكار.

ولتأكيد قدرتها أسوق ما قاله الأستاذ بلاشير:

"أني لأصرح أن لغة الاعتزاز هي العربية الفصحى... ولو كنت عربياً لكنت بالطبع فخوراً بهذه اللغة. إن اللغة العربية هذه تمكن العربي من إبراز شخصيته أمام لغات الأمم الكبرى، وتشعره أنه يمتلك لغة حضارية ممتازة(29).

فهذه شهادة لقدرة العربية وكونها لغة حضارة، استوعبت الحضارة الإنسانية مدة من الزمن ليست قصيرة، شهادة من غير عربي للعربية، تعرفها، لكننا إن قلناها نحن، قلناها على استحياء، وقد نرمي بالتعصب والميل، مع أني أؤكد أننا لو كنا أقوياء ولو تخلصنا من شبح مركب النقص وعقدة الإحساس به لقلنا وقلنا أكثر منها بقوة وثقة.

وأود أن أسوق غير هذه الشهادة، فهذا لوى ما سينيون يرى أن "اللغة العربية لغة وعي وشهادة، وينبغي إنقاذها سليمة بأي ثمن – للتأثير في اللغة الدولية المستقبلة. واللغة العربية بوجه خاص شهادة دولية يرجع تاريخها إلى ثلاثة عشر قرنا(30).

وها هو المستشرق الفرنسي هنرى لوسل قد نشر في جريدة لوموند الفرنسية بتاريخ 1964/10/3 مقالة تحت عنوان "اللغة العربية والحضارة العربية والإسلامية تزود أن الدارس لهما بنظرة جديدة عن العالم "دعا فيها على تعليم العربية بالمدارس الفرنسية، مبيناً فضائلها، فيقول: "إن التلميذ أو الطالب يجد في العربية معاني لغوية تختلف اختلافاً كبيراً عن معاني الفرنسية أو اللاتينية أو أي لغة أوربية.... يجد نفسه أولاً أمام الأبجدية العربية، وربما كان فيها بادئ الأمر موضع للنقد، ولكن سرعان ما يجد لها جاذبية خاصة، يستوقف نظره في الوقت نفسه سير الكتابة العربية من اليمين على الشمال. ولكن هذا السير يبدو مطابقاً لحركة فيزيولوجية أكثر اتفاقاً مع الطبيعة. ثم إذا به يكتشف كلمات ذات أصول ملحَّنة واضحة، ونسقاً موروفولوجيا مبتكراً داخل الكلمة، فيبتعد كل إضافة خارجية من المقاطع لأوائل الكلمات أو أواخرها، ويتيح ثروة من الاشتقاق من الأصل الواحد. وتقدم العربية نسقاً من قواعد الإعراب بسيطاً، وفي قدر كبير من المرونة. كما تقدم أساليب من تراكيب الكلام تجمع بين السذاجة والدقة....

**ويكمل لوسل بقوله:**

هذه الخصائص وغيرها تزود المعلم – من غير وعي منه – بتصور للتعبير الإنساني جديد حقاً، وفيه خصوبة وشراء"(31).

أليست هذه الشهادة الة على قدرة العربية وتميزها في خصائصها على كل مستوياتها: أصواتها، وكتابتها، وصرفها، ونحوها، وأساليبها، وقدرتها على التعبير، والمعاني والمفاهيم التي يمكنها أن تحملها وتؤديها، إضافة إلى ما فيها من خصب وشراء؟! وهذه الشهادة من عالم لغوي واسع الإطلاع يعي ما يقول ويعنيه.

ولعل عبارة ماسينيون التالية أوضح من كل قول، غذ يصف العربية بأن لها "بفضل تركيبها الداخلي وطراز الخلوة التي توحي به، قدرةً خاصة على التجريد والنزوع إلى الكلية والشمول، ومن هنا كان للعرب الفضل في استكشاف رمز الجبر وصيغ الكيمياء والمسلسلات الحسابية(32).

وأقول: وماذا يحتاج العلم لنقل مفاهيمه وأفكاره أكثر من قدرة لغته على التجريد، والنزوع إلى الكلية والشمول، وقد تميزت بهما لغتنا العربية أيما تميز.

هذه خلاصات من تجارب غيرنا على لغتنا وحكمهم عليها، لم يستطيعوا إلا الإقرار وإنصافها بما فيها من قدرات وخصائص.

ومن المفيد في هذا المجال أن أورد تجارب عملية قام بها أفراد متخصصون، وقدموا شهاداتهم بخلاصات تجاربهم.

1. تجربة الدكتور عبد الملك أبو عوف، أستاذ الكيمياء، العضوية الذي انتدب من مصر للتدريس في جامعة دمشق، واضطر أن يدرس باللغة العربية، فاستطاع أن يفعل ذلك بعد أسابيع، ثم قابل بين عمله في القاهرة وعمله في دمشق بقوله: "وما أحب أن أركز عليه هو حسن النتائج التي أحرزها الطلاب بالنسبة لنتائج كلية الهندسة بالقاهرة، وضخامة التحصيل، وحسن الاستيعاب الذي توصلوا إليه. لأن الطالب هناك كان يفهم دقائق الموضوع، مما يتيح له فرصة استيعاب قدر أكبر من معلومات المادة المعطاة، فتفهم الطالب للغة المحاضرة والشرح، كان يعفيه من بذل مجهود مضاعف ينصرف نصفه لفهم اللغة والتعرف على المفردات الصعبة في اللغة الأجنبية التي يدرس بها(33).

2. تجربة د. سليم عمار أستاذ الطب في كلية الطب في جامعة تونس، الذي القى أول درس في الطب على طلابه باللسان العربي، إذ نقلت الصحف التونسية في 24/ شباط (فبراير) 1976 تعليقات بعض طلبته على هذه التجربة الأولى، غذ قال أحدهم: إن هذا الدرس كان حقاً منعشاً، ولو أن البعض (كذا) من الطلبة وجد صعوبة للإحاطة بالألفاظ الاصطلاحية.

وقال آخر: لقد تجاوز الأستاذ سليم عمار عقبة الاصطلاحات، غذ كان يأتي بالمقابل الفرنسي بجوار المصطلح العربي حتى يتمكن من لم يتعود على الاستماع إلى العربية من الاستفادة ومن إدراك المفاهيم العلمية.

وقال آخر: إن ما استفادوه من هذا الدرس بالعربية هو أضعاف ما كانوا يستفيدونه في الدروس بالفرنسية، بل إنه في الإمكان أن يقال إنهم لو تعودوا من قبل على (كذا) الاستماع إلى دروس عربية لكان تصورهم للمفاهيم أسرع، وهضمهم لها أسهل وأيسر(34).

في ما قدمته في الأسطر السابقة رأى لطلبة عرب لم يعتادوا العربية لغة دراسة ومحاضرة، وهم يسجلون انطباعهم عن المحاضرة الأولى في الطب بالعربية، فمن المحاضرة الأولى قرر أحدهم أن ما استفادوه بالعربية لا يقل عما كانوا يستفيدونه بلغة المحاضرة المألوفة لديهم، وهي الفرنسية، وما اصدق العبارة الأخيرة من النص السابق "لو تعودوا.... أسهل وأيسر". وكذلك فإن إحساس أحدهم بأن هذا الدرس – الذي ألقى عليهم بالعربية للمرة الأولى – كان حقاً منعشاً. فما بالكم حينما تكرر التجربة وتصبح لغتهم العربية هي المألوفة الوحيدة في الاستخدام والمحاضرة والدراسة، وماذا سيكون وضع الطلبة ومقدار تحصيلهم وانتعاشهم؟!

3. تجربة زميل أردني متخصص في الإدارة يدرس في جامعة اليرموك، دعي إلى تدريس ساعات إضافية في تخصصه في كلية أهلية، وفوجئ حينما طلب منه أني درس محاضراته بالعربية، لأن لغة التدريس في تلكم الكلية هي العربية، فاعتذر، وحاول الانسحاب وعدم العمل، واهماً أنه سيحرج ولن يستطيع نقل مفاهيمه وأفكاره بالعربية كما يريد، لأنه لم يألف هذا الأمر، لأنه اعتاد التدريس بالانجليزية، وتحت الإلحاح والحث والإقناع وافق واستجاب، وبدأ محاضراته بالعربية، وكان ذلك بالنسبة له تجربة جديدة وامتحانا عسيراً في نظره، ولكنه – وبعد عدد من المحاضرات لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وجد نفسه منسجماً ومنطلقاً مع طلابه، واستطاع أن يسيطر على الموقف، وأن يحس بكفاية عالية في الأداء والتفاعل مع طلبته، أكثر بكثير مما يحسه في تدريس المادة نفسها في اللغة الانجليزية، فهجر التدريس بالانجليزية في جامعته وعاد إلى لغته ولغة قومه بثقة وقدرة عالية وعطاء متميزة، وهو يحقق الآن شجاعاً ورضا بالغين.

هذه بعض التجارب العملية سجلها من قام بها، والموضوعية تقتضي أن نتلقاها بالقبول، وإلا نقف منها موقف المكابر أو المعاند، وحتى لو وقفنا منها موقف المتشكك، فهلا جربنا بأنفسنا بموضوعية واستعداد وإخلاص وأمانة.

وإنني أدعو المتشككين المتخوفين أو الرافضين، أدعوهم إلى أن يقوموا بالتجربة هم أنفسهم لمدة فصل دراسي واحد أو سنة دراسية، ونقبل بعد ذلك شهادتهم بتسجيل النتائج التي يتوصلون إليها، ما دامت قد قامت على أساس من الموضوعية والأمانة والاستعداد. فمستوى الأداء اللغوي لدى الفرد يقوى بالاستخدام، وتضعف قدرته على الأداء وتخبو بالترك والإهمال، وسأفصل القول في هذه المقولة لاحقاً.

ولا أرى بأساً – بل أراه مفيداً في هذا المقام – من إيراد قول لهيلموت فيلبر(35):

"إن قضية استخدام اللغة القومية في العلوم ومصطلحاها في الدول النامية أهم وأكثر إلحاحاً منها في الدول المتقدمة".

وأختم الحديث بما قاله الأستاذ محمد عزيز الحبابي: "لقد كثرت المعارك الكلامية حول صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم الحديثة، هناك النافي، وهناك المرتاب، وهناك الحائر. وإنه لمشكل خاطئ لو تدبرنا الأمر على اعتبار الواقع الموضوعي، لا على الأوهام التي تعشعش في ذهنية السواد الأعظم. للغة العربية قابلية على تدريس كل العلوم والفنون... فالخوارزمي والبيروني وابن النفيس والرازي والإدريس ألفوا بالعربية، وتُعد تآليفهم علمية، بل مراجع في بابها، وحجة على ما وصل إليه البحث في عهدهم، فاللغة لم تُعِقْهم عن أن يصلوا على القمة المعرفية ويكونوا أساتذة عباقرة عالميين"(36).

هذا كله من الزاوية العملية التجريبية، والممارسة الواقعية الموضوعية في استخدام اللغة العربية لغة دراسة ومحاضرة وبحث وتاليف.

(ب) الثانية: الزاوية النظرية:

للعلم والنظريات العلمية رأى في القضية لا بد من إبرازه، ويحسن أن نعرضه من وجهات نظر مختلفة(37).

1. فمن وجهة نظر علم اللغة العام: أثبتت الدراسات خطأ القول بوجود لغة أو لهجة أفضل من غيرها، وان هذا القول لا يستند إلى أسس علمية، وأكدت أنه لا يوجد لغة لدى أي جماعة من الناس إلا تفي بحاجات مستخدميها، لكنها لا بد من أن تتعرض لمشكلة المواكبة السريعة للتعبير عن معطيات العلوم والحضارة المتدفقة المتسارعة بسبب التغير المفاجئ، وهذه المشكلة ليست خاصة بالعربية، بل هي عامة، وتزداد حدة المشكلة بسبب المفاهيم العزيزة والألفاظ القليلة، وقد تكون المشكلة هذه في العربية اقل حدة مما هي في غيرها، بسبب ثرائها في الألفاظ وطواعيتها للاشتقاق، وتجربتها السابقة مع العلوم أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، خاصة إذا ما خلصت النوايا، وجد القائمون على العربية.

ويؤكد صحة ما ذهبنا إليه في هذه القضية ما طرحه د. عبد القادر المهيري بقوله: "والمشكل الذي ينبغي أن يطرح اليوم بالنسبة إلى اللغة العربية لا يتمثل في مدى قدرتها على أن تسع مفاهيم الحضارة الحديثة، وتواكب ما يبتكره العلماء يومياً بسرعة فائقة، وتوفر للعب ما به يترجمون عن مقتضيات الحياة العصرية، فالتساؤل عن مثل هذا لا معنى له من وجهة نظر اللغوي، أو هو يدل على نظرة ساذجة على الأمور(38).

ويؤد هذا المذهب أيضاً الدكتور الحبيب الجنجحاني بقوله: (أننا نؤمن أولاً بمبدأ اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، وثانياً بأنه ليست هناك لغة راقية، وأخرى غير راقية، ولغة قادرة، وأخرى غير قادرة(39).

2. من وجهة نظر علم اللغة التاريخي: أثبتت العربية وجودها وحياتها وحيويتها قرونا طويلة، وأثبتت جدارتها وبقاءها بالرغم من كل ما تعرضت له هي وأهلها، وكذلك فإن لها تاريخاً وماضياً طويلاً جديراً، حملت فيه العلوم ومفاهيمها، ووفت بحاجاتها في فروع العلم المختلفة.

3. من وجهة نظر علم اللغة المقارن: العربية لغة سامية تتشابه في كثير من سماتها وخصائصها مع اللغة السامية الأخرى التي تشترك معها في الفصيلة والأرومة، ولها من القدرات والإمكانيات ما لتلك الساميات ويزيد – بالتأكيد –، فما بال السريانية تحملت علوم اليونان والرومان والفرس ردحا من الزمن؟ إذ نقلت كثير من علوم أولئك المتقدمين إلى العربية عن السريانية(40)، ونقول في العربية: أنها قاصرة الآن عن هذه الوظيفة، مع أنها قامت بها في السابق فعلاً وبنجاح لا يضاهى!!

وها هي العبرية أصبحت لغة العلم والدرس والبحث والاختراع في مجتمع ذي لغات متعددة متباينة، بعدما اندثرت آلاف السنين، وهي لا تكاد تصل على مستوى قدرات العربية وتجاربها، وهي من فصيلتها أيضا، وتشابهها – وبصورة أدنى – في المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية وبعض النواحي الدلالية والأسلوبية.

إن ذلك المجتمع الخليط صمم على إحياء لغته المندثرة ونشرها وبعثها، فانبعثت بالرغم من كل المشكلات، أما نحن، فلا نزال بين متهيب ومتردد، ومتشكك وطاعن ومأجور وجاحد.

4. من وجهة نظر علم اللغة العقلي: أجمع العلماء على الصلة الوثيقة بين الفكر واللغة، فالفكر وخلاصته موجودان في اللغة، واللغة – أو الكلام على المستوى الفردي – هي الوجود الخارجي الحسي للفكر أو المعاني، ودقته تعتمد على قدرة الفرد على اختيار كلامه المناسب وتوظيفه للتعبير عن معنى أو فكرة، وذلك يتجلى بوضوح أكبر في استخدامه لغته القومية الأم، فلديه القدرة الكامنة للأداء المناسب السليم.

"واللغة وسيلة رمزية للتفكير وتبادل الأفكار والتخاطب، وبدونها ينحط التعبير والتفاهم إلى مستوى المدركات الأولية المحسوبة والانفعالية(41).

وقد فصلنا العلاقة بين اللغة والفكر في موضع سابق، عند عرضنا لقضية "لماذا تعريب التعليم الجامعي؟ ولماذا تدريس العلوم بالعربية"؟؟

وينقل الأستاذ الحبيب المخ عن المرحوم محمد المبارك قوله: "إن اللغة ليست فقط واسطة للإبلاغ، ولكنها هي الفكر نفسه، فلا لغة بدون فكرن ولا فكر بدون لغة، ثم إن نظرة الإنسان إلى الكون إنما تحكم ضبطها اللغة التي يتكلمها الإنسان(42).

وتقرر الدكتورة نوال محمد عطية أن اللغة هي الأداة الإنسانية الضرورية للتفكير والاتصال الاجتماعي، وتبادل الأفكار بين الأفراد (43)، فلا شك أن التفكير والاتصال باللغة الأم المعتادة يكونان أنجح وأدق تعبيراً وأبين دلالة.

5. من وجهة نظر علم اللغة النفسي: في أوائل الخمسينيات ظهر اتجاه جعل علم النفس يختلط بعلم اللغة، الأمر الذي من أجل وَجَّه علماء النفس اهتماماتهم نحو دراسة اللغة والسلوك اللغوي. واللغة من أهم وسائل التعبير والاتصال الإنساني بين الأفراد والجماعات، غذ هي ترجمات لما يدور في الذهن من أفكار، والوسيلة الاجتماعية التي يمكن بها أن تخرج الفكرة الذهنية غير الملموسة إلى حيز الوجود والتداول(44).

وبالتالي فاللغة سلوك إنساني للتعبير عن حاجات الإنسان وأفكاره وأحاسيسه وإشباع رغباته بالتعبير عن مشاعره بأسلوب رمزي، وهذا السلوك يدعونه السلوك اللغوي(45).

فبالنظر إلى اللغة على أنها سلوك إنساني لغوي، رصد علماء النفس اللغوي هذا السلوك، وتبين لهم نتائج تغيير الفرد سلوكه اللغوي الذي اعتاده منذ نعومة أظفاره، وهو استخدام لغته القومية، مما يؤدي إلى اهتزاز شخصيته، وفقدِه الجرأة على الحديث بلغة أجنبية، لأن هذا الأمر بالنسبة له تجربة سلوكية جديدة.

وأن تدريسه العلوم بلغة أجنبية يفقده الثقة بلغته القومية، وبالتالي يتضعضع انتماؤه لهذه الأمة، ويقع تحت تأثير مشكلتين في الدراسة الجامعية: هما اكتساب مفاهيم علمية جديدة وتحصيلها، واكتساب لغة جديدة ووعيها، وهذا يؤدي إلى التشتت ومضاعفة الجهد وربما إضاعة الوقت بالرسوب أو الانسحاب، ويؤدي أيضاً إلى الخوف من مجابهة أي سؤال في هذا العلم، وضياع فرص التحصيل المأمول، وقطع الصلة بينه وبين مدرسه، وهذا كله يؤدي بالتالي إلى خموله ولا مبالاته، وعدم تنمية قدرته على المواجهة والحوار وبناء الذات. بينما يبقى سلوكه متزناً وشخصيته متوازنة ثابتة، إن استمر على سلوكه اللغوي الذي عليه ترعرع.

6. من وجهة نظر علم اللغة التطبيقي: أثبتت بحوث الدراسات اللغوية التطبيقية وبحوث التحليل اللغوي التقابلي وبحوث تحليل الأخطاء اللغوية، أن الطلاب العرب يواجهون مشكلات حقيقية في تعلم اللغات الأجنبية ومهاراتها واستخدامها، مما يبقى هذه اللغات غير ملائمة للاعتماد عليها في الدرس والمحاضرة والبحث، وبالتالي تصبح العملية ضرباً من إضاعة الوقت والجهد والمال، وممارسة محفوفة بالمخاطر، حتى أني وجدت غير واحد من الطلبة يدونون بعض العبارات الانجليزية من محاضراتهم بالحرف العربي والكتابة العربية، وحجتهم في ذلك أنهم لا يستطيعون استيعابها، فهم يكتبونها هكذا للعودة إلى زملاء لهم، أو إلى المنازل والمكتبات، ومحاولة قراءتها وردها على الانجليزية ثانية، وترجمتها من جديد.

ويزيد مشكلتهم تعقيداً اختلاف الانجليزية أو الفرنسية – مثلاً – عن نظام العربية وقواعدها الصوتية والصرفية والتركيبية والبيانية والسياقية. هذا الاختلاف قد يؤدي _ أحياناً – ببعض المتمرسين من العرب بالاجنبية على أن يخونهم التعبير فيها، فيميلون إلى استخدام بعض الكلمات العربية خلال تحدثهم بالانجليزية – مثلاً – للتعبير عن بعض المفاهيم، وبالتالي لا ينطلق أحدهم في التعبير باللغة الأجنبية عند إلقاء بحث أو طرح سؤال أو إجابة، أو مناقشة قضية بصورة مرضية، ويبدو عليه التردد والحرج واللعثمة واللجلجة، ورما ضياع الأفكار لمدة ليست قصيرة.

كل هذه المشكلات تواجه الطالب العربي عندما يعتمد اللغة الأجنبية لغة درس وبحث، إضافة إلى مشكلات الكتابة الأجنبية والتعبير الشفوي والقراءة فيها، بينما تكون كفايته وقدرته مرضية كافية في مجالات دراسته، إنْ دراسةً أو مناقشةً أو بحثاً أو قراءةً أو كتابةً في لغته الأمن مما يوفر عليه حراً وجهداً وتحصيلاً أدق وأوفى.

7. علم الدراسات الأسلوبية والتحليل السياقي: يعتمد هذا على القدرة البيانية لمتحدث اللغة في التعريف والتصنيف والتمثيل والتعميم والتخصيص والدقة في التعبير، فالطالب العربي مهما تمرس باللغة الأجنبية فهو سيبقى عاجزاً عن معرفة دقائقها وأسرارها كمعرفته دقائق لغته.

وقد أثبتت العربية أنها قادرة على البيان عن قضايا التعريف والتصنيف وما بعدهما، وإنْ عدنا إلى كتب التراث العلمي العربي وكتب المصطلحات والتعريفات فإننا سنتأكد من ذلك، ويؤكد هذا أيضاً الكتب العلمية العربية الحديثة التي صنفها علماء متمكنون في تخصصهم وفي لغتهم العربية في آن واحد.

هذه جوانب المشكلة الكبرى التي يثيرها المترددون حول كفاية اللغة العربية وقدرتها على استيعاب العلوم، ووفائها في التعبير عن مفاهيمها وأفكارها ونظرياتها، ليخلصوا إلى أن العربية ليست لغة علمية، أو مناسبة للدرس والبحث العلمي الحديث، فيسوغوا بذلك هجرهم إياها دون سند علمي أو تجربة علمية مخلصة.

وها نحن قد ناقشنا هذه المشكلة الكبرى من الزاوية التجريبية والعملية، ومن الزاوية النظرية البحت، وحشدت من الأدلة – في نظري – ما يكفي لإبطالها وعدم قبول سماعها أو التذرع بها، مهما أرجف المرجفون أو زعم الطاعنون والجاحدون.

وأعلم أن ثمة مشكلات يفترضها هؤلاء القوم أو يدعونها، ويرونها معيقة مانعة من السير بثقة في سبيل تعريب لغة العلم وتدريسه، أو يزعمون أنها قد تنتج عن تدريس العلوم بلغتهم القومية العربية، وان هذه المشكلات قد تؤدي إلى مردود سلبي أو نهايات لا تحمد عقباها، وقد جمعتها أيضاً من محادثات ومناقشات ومقابلات وقراءات وندوات، سأفرد إليها ما تبقى من صحائف هذا البحث، واضع حلولاً مناسبة إليها، مستعيناً بالله، متكلاً عليه.

مشكلات مفترضة.... وحلول

يتوهم بعضهم أن تعريب لغة التعليم الجامعي مغامرة لا تخلو من مخاطر ومشكلات، يراها مستعصية لا تحتمل الحل، ولما كان ينظر إليها من بعيد، ولم يجرب بنفسه مجابهتها – فهو لو جابهها لهان أمرها عليه وسهل حلها – فأنها تبقى متضخمة أمام عينيه، ويبقى هو متهيباً منها، يتذرع بها وسيلة مانعة إياه من القيام بأنبل عمل قومي علمي، بحجة أن إقدامه على هذه التجربة مخاطرة وخيمة العواقب، ووقر هذا في نفسه، حتى أنه زرع هذا الوهم وجعله حقيقة لا تحتمل البحث أو التجريب أو المناقشة، بعد أن هيأ له في نفوس نفر من أبناء الأمة.

وأقول: صحيح، وان القضية ليس سهلة كل السهولة، ولا بد في البدء أن تجد مشكلات وتظهر عقبات، لكني لا أراها مستعصية على الحل، مهما بالغوا فيها، ومهما أظهروها ضخمة، شبحاً يطاردهم ويصدهم، فبقدر أهمية المسألة وشرف العمل وأهدافه علينا أن نتوقع المصاعب، ولكن أين الانتماء والإخلاص والتضحية؟ أين الإيمان والإرادة؟! وأمامنا تجارب أمم كثيرة في الماضي والمحاضر، خاضت التجربة نفسها ونجحت وتخطتها، وكانت ظروفها كظروفنا أن لم تكن أسوأ، لدينا تجربتنا نحن أيضاً، تجربة أمتنا قبيل ازدهار الحضارة الإسلامية العربية، خلال عصر الترجمة والتعريب، لماذا لم يبقوا على لغة العلوم والحضارة القديمة؟!

أنني أرى القضية قضية إيمان وانتماء وإرادة، وإخلاص واعتزاز بالذات، هكذا أراها، وأرى أن كثيراً ممن يدعي المشكلات حاجبة له من البدء والمجابهة تنقصه صفة أو أكثر من الصفات الدافعة النبيلة، التي يجب أن ننطلق منها دائماً. وأتساءل بمرارة: لماذا نعجز دائماً ونتقاعس عن تحقيق القضايا القومية المهمة كهذه؟ حتى أن بعض العلماء

والمستشرقين المنصفين، يرى أهمية خدمة العربية وإنعاشها وممارسة العلم بها قضية إنسانية، تخدم الحضارة الإنسانية، بعد أن نظر في خصائصها ومزاياها وقدرتها، كما بينا في القسم السابق من هذا البحث.

وحتى يكون العرض أدق وأكثر موضوعية، أستطيع عرض المشكلات المزعومة، حتى أن بعضهم يراها مشكلات مهمة وخطيرة، صدق بزعمها، فأخذ يطرحها ويرددها إلى درجة قد نحس معها أنه مؤمن بها. ولا شيء يمنعه من ممارسة العربية لغة درس وبحث سوى هذه المشكلات، ويرددها في مقابلاته ومناقشاته وحواره، وقد أوهم أنها مشكلات حقيقية، فأصبح من المفيد أن نفرد لها جانباً من البحث والمناقشة.

1. يقول بعضهم: أن لغة الطلبة غير فيحة، وهي مشوبة على درجة كبيرة باللهجة العامية، وأن اللهجة غير جديرة ولا ملائمة لتكون لغة محاضرة وبحث، وأن ضعف الطلاب باللغة الفصيحة وجهلهم بها، يقوي اتجاهنا بعدم ملائمة الفصيحة لتكون لغة درس وبحث فهي غريبة على الطلبة، ولم يعتادوها.

وأقول: أن هذا القول صحيح في معظمه وظاهره ومقدماته، لكن نتائجه التي توصلوا إليها غير علمية وغير مقبولة.

صحيح أن اللهجات مسيطرة – وهذا أمر خطير لا بد من الالتفات غليه وعلاجه – وصحيح أن الطلبة يستغربون الفصيحة، ولم يألفوها، وبالتالي فهم ضعاف بها، وصحيح أن اللهجات غير ملائمة ولا جديرة بتحمل العلم ومفاهيمه ونظرياته، لكن هذا لا يعالج بالانصراف على اللغة الأجنبية، كان الأجدر الاتجاه إلى اللغة القومية الفصيحة وتثقيف أبنائها بها وحملهم عليها، فهي أقرب إلى شعور الإنسان العربي وآماله وإحساسه وشخصيته وتراثه، وكذلك فهي أقرب إلى عاميته، فيكون الارتقاء به إلى الفصيحة أمراً سهلاً وميسوراً، هذا يكون إذا خلصت النوايا وتوفر الإيمان والانتماء.

وقد رأينا في موضوع سابق أن حياة اللغة بالاستخدام والممارسة، وأن الاستخدام أساس لا بد منه في البعث والإحياء والتطوير، وإلا فكيف سنتيح الفرصة للعربية ومتى؟ إذا أبقيناها بعيدة غريبة على ألسنة أهلها، أعطوها الفرصة والإخلاص والإرادة وجربوا، وأنا واثق – وثقوا معي – من النتائج.

2. وتصل بهذه الدعوى، قول بعضهم إن بعض العلماء المتخصصين من أبنائنا، ومن خريجي الجامعات الأجنبية، أو من الذين أقاموا طويلاً هناك، لا يستطيعون التدريس والبحث بالعربية، ولا يملكون القدرة للتعبير بالعربية الفصيحة عن أنفسهم وأفكارهم.

وأقول: أن هذا القول قد يكون صحيحاً في مرحلة معينة آنية، لكنها ليست مزمنة ولا تدوم، وبالإمكان التغلب عليها – بممارسة العربية الفصيحة مهما كانت البداية صعبة–، والمحاضرة بها والتحدث والتدريس بها والكتابة بها، وبذلك يمسك بزمامها ويتمكن منها، وقد عرضت تجارب بعض الأساتذة في مواجهة هذا الموقف، وكيف يمسك بزمامها ويتمكن منها، وقد عرضت تجارب بعض الأساتذة في مواجهة هذا الموقف، وكيف تغلبوا ونجحوا، وهذا الموقف لا يتطلب سوى الإرادة وحسن النية والممارسة، حتى لو كان الأمر صعباً عليهم، فهم علماء تغلبوا على عقبات كثيرة واثبتوا تفوقهم، فكيف يضعفون عن مواجهة قضية سهلة في حجمها، قومية وخطيرة في أبعادها ونتائجها، تستحق التعب من أجلها، وتتطلب جهداً للتمكن من إتقان العربية الفصيحة والتمكن منها، لأن ذلك أساس لا بد منه في التعريب تدريساً وتأليفاً، "غذ يجب أن تكون الكتب العلمية التي تصاغ بلغة علمية عربية متمتعة بمزايا السلاسة والسهولة والوضوح،.... ويقتصر هذا الأمر على التوصل على الأسلوب المناسب في الكتابة، غلا أن هذا لا يعتمد على التكون العلمي للكاتب بقدر ما يعتمد على أعداده اللغوي(46).

وقد خاض هذه التجربة كثيرون من الغُير المخلصين ونجحوا فيها، فها هم أشقاؤنا في الجامعات السورية لا يقل مستوى طلابهم أو بحوثهم وتصانيفهم عن غيرهم من نظرائهم في العالم العربي بل والعالم، ولدينا أمثلة متفرقة في بعض الجامعات والمراكز العربية، خلصت نواياهم لله والأمة فنجحوا وأفلحوا. وأنا لا أرى القضية مستعصية أو خطيرة أو دية

غلا في حال واحدة، وهي ضعف الانتماء وانعدام الشعور بأهمية الصلة بين الفرد وأمته، وانعدام الثقة بالأمة ولغتها، وانعدام المبالاة والاهتمام بالانتساب إليها، وهذه قضية قاتلة ومختلفة، لا نستطيع حواره أو الاستمرار معه أن كانت الصورة هكذا، لأنه يصبح حواراً مع إنسان سلخ نفسه من الأمة، ولا ينتمي بصدق إليها، ولا يأبه لهمومها، أو آمالها أو آلامها، فهو أجنبي بإحساسه ومشاعره وآماله وانتمائه، وان كان عربياً بادعائه ولون بشرته ولهجته العامية.

3. وثمّ حجة أخرى، يحتج بها المترددون المتقاعسون، وهي تخوفهم من تردّي مستوى الطلبة وضعف مستواهم العلمي أن هم درسوا بالعربية، وقد سمعت هذه الجهة، وسمعها بعضكم ويسمعها، ولا أدري كيف يسمح هؤلاء لأنفسهم بقولها، وما علاقة اللغة بالمستوى العلمي للطلبة، ومن قال أن للغة علاقة بهذه القضية، ما دام قد أحسن استخدامها. إلا أن كان بعضنا لا يزال متمسكاً بعدم قدرة اللغة العربية على تحمل العلوم ومفاهيمها، وعدم صلاحيتها لغة للعلم، بالرغم مما قدم البحث في فصل سابق.

ومن قال: أن الخريجين من الدارسين بالإفرنجية نوابغ، وزملاءهم من الدارسين بالعربية جهلة، وقد أثبت الأخيرون، جدارة في الخدمة والعمل ومتابعة الدراسات العليا والتصنيف والبحث والتأليف.

أن القضية مختلفة، فضعف الطلبة ليس مرده دراستهم باللغة القومية، ولا يمكن أن تكون كذلك، لأن اللغة الأم عامل تقريب وتسهيل وتمكين، القضية يصورها بعضهم هكذا، ولكنها مختلفة، فقد ظهرت هذه الدعوى في المغرب الشقيق تشكو من أن مستوى التعليم قد انخفض بعد التعريب، وتزعم أن السبب هو التعريب، وكاد الزعم ينطلي ويمر، لولا أن قيض الله علماء مخلصين أسهموا في اللجنة التي شكلت لدرس الأسباب، ومنهم الأستاذ الجليل أحمد الأخضر غزال(47)، إذ أثبتت هذه اللجنة أن المشكلة تعود على ضعف مستوى الكتب وتدني ما حوته من معلومات مقابلةً بنظائرها من الكتب الأجنبية، وقد قالت اللجنة في آخر تقريرها: "وإذا انخفض المستوى فهناك سبب، وهذا السبب هو أننا اللجنة في آخر تقريرها: "وإذا انخفض المستوى فهناك سبب، وهذا السبب هو أننا لا نتعلم بلغتنا ما نتعلمه بلغة غيرنا".

إذن فالسبب في ضعف المستوى العلمي ليس التعريب أو اللغة العربية، بل ضحالة الكتب المصنفة في العربية وضآلة معلوماتها مقابل الكتب الأجنبية، وهذا إما أن يكون تقصيراً في المؤلف/ أو المترجم العربي نفسه بسبب عجزه وجهله في العلم، أو اللغة ومعرفة أساليب التعبير بها، وإما أن يكون الأمر مقصوداً مبيتاً لإظهار المشاكل كأنها ناتجة عن اللغة العربية وقصورها، فيتألب الناس عليها ويكثر أعداؤها والناقمون عليها.

4. ومما يثار من مشكلات قولهم: لو عربنا لغة التعليم الجامعي، فكيف يتسنى لنا ولأبنائنا المتخصصين متابعة ما يجد م بحوث ونظريات علمية في تخصصهم، وجل ما ينشر بلغة أجنبية.

وأقول: أن هذا القول فيه شيء من الصحة، لو كان هؤلاء الخريجون يهمهم – فعلاً – متابعة ما يجد ويكتب في تخصصهم عالمياً، فقد ذكر الدكتور محمد هيثم الخياط أن نسبة الذين يتابعون ما ينشر في مجلات أجنبية من الأطباء لا تتعدى خمسة في المائة في أحسن الظروف، وهو مطلع مسؤول عن المكتبة والمطبوعات الطبية التي توزع (48).

إذن فلا صحة لهذه الدعوى، لأنها لا توجد عمليا على أرض الواقع، حتى لو كانت موجودة ولها أهمية وتأثير سلبيان، فلدي اقتراح لحل المشكلة وتذليلها، سأقدمه بعد عرض المشكلتين التاليتين 5، 6، لأن لهما علاقة بالاقتراح.

ومع ذلك أقول: كيف تفعل الأمم غيرنا في مجابهة هذه المشكلة؟!

لماذا لا نستفيد من تجاربهم، ونضع ما يصنعون، وسأوضحه في الاقتراح الذي سأورده.

5. وثمَّ حجة أخرى، وهي غيرة هؤلاء المكابرين على مشابعة طلبتهم الدارسات العليا، وغالباً ما تكون هذه المتابعة في بلاد أجنبية.

أقول: نعم، هذا صحيح، ولكن هل نظن أن تعريب لغة العلوم في بلادنا يعيق هذا الأمر ويحد من قدرة أبنائنا الخريجين على الانطلاق في هذا الاتجاه والإفادة منه والتفوق فيه؟ أنا لا أرى ذلك والواقع يسند رأيي، والمنصفون من المختصين في

العلوم المختلفة يوافقونني فهل تحصيل زملائنا وأشقائنا السوريين ومن درس الدرجة الجامعية الأولى بالعربية محدود أو ضعيف خلال الدراسات العليا في البلاد الأجنبية، أن تحصيل هؤلاء لا يقل أبداً عن تحصيل أخوانهم وزملائهم من الذين يتابعون الدراسات العليا معهم، ودروسا الدرجات الجامعية الأولى بلغة أجنبية، فهم قد يعانون أشهراً قليلة يتقنون اللغة خلالها ثم ينطلقون بثقة وقوة.

ثم من قال أيضاً أن قدرة الخريجين العرب الذين درسوا الدراسة الجامعية الأولى في بلادهم العربية بالأجنبية أن قدرتهم في الانجليزية تمكنهم من متابعة الدراسات العليا في البلاد الأجنبية؟!

أن ما حصلوه من اللغة الأجنبية خلال المرحلة الجامعية الأولى لا يمكنهم من شيء ذي بال أو أهمية، إلا أفراداً قليلين لهم ظروف خاصة ومواهب خاصة، ولكنا نخالط هؤلاء الخريجين ونعرفهم قبل التخرج وبعده.

ويؤكد الدكتور محمد هيثم الخياط أن دراسة هؤلاء بلغة أجنبية لا تعني أنهم أتقنوها، وأن أوراق الامتحان التي أطلع عليها لهؤلاء ونجحوا على أساسها، لو أنها كتبت في البلد الأصلي لهذه اللغة الأجنبية لكان إعطاؤها الصفر صدقة من الصدقات(49) لضعف لغتها.

ولنفرض أن غيرتنا على مريدي متابعة الدراسات العليا في محلها، وبدراستهم باللغة الأجنبية يتمكنون منها، فهل ينوي جميع طلاب جامعاتنا العربية متابعة الدراسات العليا؟ بالتأكيد لا، وأكثرهم لا ينوي طبعاًن ولذلك فليس منطقياً ولا جائزاً أن نهمل لغتنا من أجل حاجة فئة محدودة ممن يرغبون الاختصاص (50)، ونستطيع علاج القضية بطريقة أخرى أقل خطراً ولا تقل فائدة، وسأعرضها في نهاية المشكلة التالية.

6. وحجة أخرى، وهي قولهم: أن السوق العربية والشركات العربية في حاجة إلى خريجين يتقنون الانجليزية مثلاً أو الفرنسية، وتشترط المؤسسات في المتقدم أن يكون ذات قدرة في لغة أجنبية.

وأقول: نعم، هذا صحيح، لكن معرفة هؤلاء الخريجين الذين درسوا العلوم في بلادهم بلغة أجنبية لم يتقنوها، وكما أسلفت فمعرفتهم بها ليست مطمئنة.

إضافة إلى أن المؤسسات والشركات العربية ربما تستطيع هي الأخرى أن تستغني ولو جزئياً عن متقني الانجليزية، لأن الشركات العالمية تطلب وُد الشركات في العالم الثالث لأنها سوق استهلاكية رائجة، ويحدث كثيراً أن يكون لدى تلك الشركات العالمية متقنون للعربية، وهي مستعدة لمخاطبة الشركات العربية بالعربية ما دامت في حاجتها، وتضمن معاملتها وتنشيط سلعها ومصالحها.

أما الاقتراح الذي أرتأيه لتقوية أبنائنا في الجامعات العربية باللغة الأجنبية، فملخصه: "دَرِّسوا أبناءنا العلوم في جامعاتنا بالعربية، وأن كنتم تريدون مصلحتهم وتقويتهم باللغة الأجنبية فافرضوا عليهم ساعات إجبارية إضافية قبل التخرج دراسة لغة أجنبية، شريطة أن يكون موضوع محاضرات خاصة بمصطلحات تخصصه، واطلبوا منهم دراسة نصوص باللغة الأجنبية منهم ذات علاقة بتخصصه بهم، فهذا يفيدهم كثيراً، ويحقق لهم مستوى من المعرفة في اللغة الأجنبية، ونحفظ للغتنا شخصيتها ولا نفرط فيها، ونعرب لغة العلوم، وبذلك نحقق الهدفين معاً.

وأنني في هذا المجال أدعوكم أيها المسؤولون للتجربة فوراً وبإخلاص، وأنا واثق من أن النتيجة لن تكون اقل مما نلمسه الآن، فدروسهم خمس مواد أو عشر مواد لغة أجنبية إضافية ذات علاقة بتخصصهم، وبذلك يتحسن أداؤهم ومستواهم، ونوفق بين مطمح تعريب العلوم وبين ما تصبون إليه من قدرة الطالب في اللغة الأجنبية,

7. والمشكلة السابعة التي يطرحها المترددون: قضية عدم توافر الكتاب العلمي المناسب باللغة العربية. وهذا صحيح جزئياً.

أما قولي "جزئياً" فلأن لدينا كتباً مستواها جيد إنْ لم يكن أفضل من ذلك، قام بالإشراف على ترجمتها مجمع اللغة العربية الأردني الفتي وفق الله القائمين عليه وسدد خطاهم نحو الخير دائماً، وقام بالترجمة والمراجعة أساتذة جامعيون

متخصصون، وفيما أعلم فقد أرسل نسخاً منها هدايا إلى الجامعات والمراكز العربية المعنية، وعرض على المسؤولين فيها خدماته لتزويدهم بما يطلبون، ولديه كميات مخزونة تحت الطلب. إضافة إلى أن لدى بعض الأقطار العربية التي عربت العلوم كتبا مماثلة يدرسونها بالعربية، وقد أثبتت كفايتها.

وتستطيعون أيها السادة التدريس منها، ولكم – مشكورين – أن تضيفوا أو تستدركوا أو تطوروا ما تشاؤون، وبذلك تتكاتف الجهود للحصول على مستوى مشرف مقبول للكتب العلمية العربية، إن كنا جادين مخلصين في هذا المجال، إضافة إلى جهود مؤسسات ومراكز أخرى في هذا المجال، وبإمكان كل أستاذ أن يبدأ بنفسه أيضاً ويكتب لطلابه، وأعلمُ أن البداية صعبة، لكنها خطوة في الاتجاه الصحيح، نأمل أن تحقق الآمال.

ولنا في هذا أسوة حسنة من تجارب غيرنا من الأمن لم ترتضِ أن تبقى عالة في تدريس العلوم على لغة غيرها من الأمن فلدينا التجربة اليابانية والصينية والفيتنامية والكورية وكل أقطار أوروبا الغربية والشرقية، ومع ذلك لم يُعقْها التدريس والتأليف بلغاتها عن التقدم ، بل أصبحت استجابتهم أوفر وأوضحن وحققوا أكثر مما حققنا ونحقق(51).

وحينما تصح العزائم وتنوى الأمم وتصمم على انجاز قضية قومية، فإنها تحقق المعجزات وتذلل العقبات مهما كانت كثيرة، ويحسن أن أسوق لكم تجربة قام بها أوروبا في القرن السادس عشر، يروي د. محمد هيثم الخياط أن بارا سيلزوس حين بدأت النهضة الطبيعية الغربية في القرن السادس عشر، وقد أحس بخطورة بقاء الأوروبيين عالة على كتب ابن سينان أتى بهذه الكتب فحرقها أمام جمع حاشد في مدينة بازل، محرقاً معها كل صلة بحضارة العرب، ومضيئاً مشعل الحضارة الجديدة في أوروبا التي تتحداكم الآن(52).

أقول: أن باراسليزوس وضع الأوروبيين أمام الأمر الواقع وبذلك دفعهم إلى التأليف بلغاتهم لكي لا يبقوا عالة على غيرهم، فلم لا نفعل فعلته، حتى نحس بالحاجة ونشعر عن سواعد الجد والعمل، لأن الحاجة أم الاختراع، تماماً كما فعل طارق بن زياد عندما أحرق السفن، وأبقى الجند تحت ضغط الأمر الواقع، يواجهون واقعهم ببسالة وإبداع.

ثم ماذا قدم هؤلاء الذين يحتجون بعدم وجود الكتب العلمية العربية الراقية؟! وماذا يريدون من الناس غير المتخصصين، أن القضية قضيتهم، فَلِمَ لم يشمروا عن سواعد الجد ويؤلفوا ويكتبوا، ولِمَ لا يشمر المختصون أمثالهم الآن ويؤلفون حتى يسدوا الحاجة؟ فهم أصحاب الشأن، وعليهم تقع المسؤولية كاملة، أم يردون أن يحملوا المسؤولية لغيهم؟!

ويتصل بمشكلة الكتب العلمية العربية البديلة للأجنبية قضية تعريب المصطلح، وسأعرضها في ما يلي:

8. مشكلة المصطلح العربي: هذه مشكلة متصلة بمشكلة وجود الكتاب العلمي العربي، لأن الكتاب لغة للسرد والتوضيح ومصطلحات علمية ورموز.

ففي باب المصطلحات: فإن نهضة طيبة بدأتن وثمّ جهود وبدايات لوضع مصطلحات عربية مقابل المصطلحات الأجنبية، وقد بدأ الإحساس بالمشكلة، والبدايات طيبة، لكنها ليست كافية، وهي في بعض نواحيها فردية، لكننا نأمل لها التوفيق والخير، وهي تقوم الآن على أسس علمية منهجية، وتفيد من المنظمات والخبرات العالمية المختلفة، بدأت بعض المراكز والجامعات العربية تتفهم خطورة هذا الموضوع وتوليه العناية، وتدريسه لطلابها(53). وكذلك فهناك كتب كثيرة للمصطلحات المعربة تشكو الإهمال على رفوف المكتبات.

ومع ذلك، فإني لا أرى الأمر عائقاً ومانعاً من تعريب لغة العلوم، فنستطيع أن نضع المصطلح العربي المقترح وأمامه المصطلح الأجنبي بين قوسين، توخيا للدقة في التعبير، كما فعل الأستاذ الطبيب لسليم عمار أول عهده بالتدريس بالعربية في كلية الطب في تونس.

أما الرموز، فهذه ليست قضية مهمة، إن كانت باللاتينية أو بالعربية، فقد درسنا الكيمياء والفيزياء في المدارس الثانوية ورموز العناصر والمواد باللاتينية، وهذا لا يغير من الجوهر شيئاً.

وأخيراً، فلا بد من البدء مهما كانت البداية شائكة وصعبة، ولا بد من اقتحام التجربة بثقة وأمل، وأنا واثق أننا سننجح إن شاء الله، لأن العناصر الضرورية متوافرة، فلغتنا أثبتت قدرتها، ولديها الإمكانية للاستجابة لمتطلبات العصر، ولدينا المواهب والقدرات والإمكانيات، وما علينا إلا الإرادة والتصميم والاجتهاد، ولكل مجتهد نصيب.

**والله ولي التوفيق،،،**

**حواشي البحث**

1. محيي الدين عزوز – مقالة "دور الترجمة في إثراء اللغة العربية"، من كتاب تنمية اللغة العربية في العصر الحديث صفحة (232).
2. الحبيب المخ، "دور اللغة في تماسك شخصية الأمة"، من كتاب "دراسات في اللغة والحضارة صفحة (30).
3. نفسه.
4. محمد عزيز الحبابي، تأملات في اللغو واللغة صفحة (99 – 100).
5. الأستاذ الحبيب المخ، دور اللغة في تماسك الأمة"، من كتاب دراسات في اللغة والحضارة صفحة (32).
6. د. محمد هيثم الخياط، في سيل العربية صفحة (31)ز
7. أنظر تفصيلاً أوفى في الصفحات اللاحقة، تحت عنوان "معوقات تعريب العلوم ولغة تدريسها – من وجهة نظر علم اللغة النفسي.
8. محمد الهادي الطرابلسي، مفهوم حياة اللغة وأسس تطوير العربية، من كتاب تنمية اللغة العربية في العصر الحديث صفحة (41).
9. محمد عزيز الحبابي، تأملات في اللغو واللغة صفحة (162).
10. د. وليد محمد مراد، تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام، صفحة (222).
11. فاندريس، اللغة صفحة (3).
12. د. نايف خرما، أضواء عن الدراسات اللغوية المعاصرة، صفحة (218).
13. د. وليد محمد مراد، تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام، صفحة (220) عن العالم فختة، مجلة الأصالة، عدد 65، صفحة (16)، 1979م.
14. كمال الحاج، في فلسفة اللغة صفحة (109).
15. د. إبراهيم السامرائي، اللغة والحضارة صفحة (37).
16. الحبيب المخ، دور اللغة في تماسك شخصية الأمة "من كتاب" دراسات في اللغة والحضارة، صفحة (34).
17. محيي الدين عزوز، دور الترجمة في إثراء اللغة العربية، من كتاب تنمية اللغة في العصر الحديث، صفحة (231).
18. الخفاجي، سر الفصاحة صفحة (282) تحقيق عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد صبيح 1969 القاهرة.
19. محمد عزيز الحبابي، تأملات في اللغو واللغة (72، 73).
20. د. محمد سويس، خواطر حول وضع اللغة العربية في العصر الحاضر، من كتاب تنمية سويس اللغة العربية في العصر الحديث، صفحة (14).
21. نفسه (21).
22. عبد العزيز بنعبد الله، المعاجم الحديثة العامة والمختصة، من كتاب تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، صفحة (126).
23. أحمد الشرفي، المعرب والدخيل في تطوير اللغة العربية العلمية، من كتاب تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، صفحة (113).
24. محمد عزيز الحبابي، تأملات في اللغو واللغة (177).

25. محمد عزيز الحبابي، تأملات في اللغو واللغة، صفحة (80).
26. عبد القادر المهيري، من قضايا العربية في عصرنا، مجلة المعجمية التونسية صفحة (11).
27. محمد الهادي الطرابلسي، مفهوم حياة اللغة وأسس تطوير العربية، من كتاب تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، صفحة (43).
28. نفسه (44، 48).
29. عن كتاب "تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، صفحة (18)، من محاضرة "خواطر حول وضع اللغة العربية في العصر الحاضر "للدكتور محمد سويسي.
30. عن كتاب "دراسات في اللغة والحضارة، صفحة (35) من مقالة دور اللغة في تماسك شخصية الأمة للأستاذ الحبيب المخ.
31. نفسه صفحة (35).
32. نفسه صفحة (36).
33. د. مفيق دوشق "دور اللات القومية في الدراسات العليا والبحث العلمي" بحث منشور في مجلة مجتمع اللغة العربية الأردني عدد (27)، عن د. حسين نصار (دراسات لغوية) 1981، الراشد العربي – بيروت.
34. من كتاب تنمية اللغة العربية في العصر الحديث بحث" خواطر حول وضع اللغة العربية في العصر الحاضر" صفحة (21)، د. محمد سويسي.
35. هو المدير السابق لمنظمة "أنفوتيرم" في فيينا وخبير المصطلحات فيهان ذكر هذا الرأي في محاضرة له في ندوة التعاون العربي في مجال المصطلحات علما وتطبيقاً التي عقدت في تونس ما بين (7–10) تموز (يوليو) 1986.
36. محمد عزيز الحبابي، تأملات في اللغو واللغة، صفحة (163)ز
37. أنظر في ذلك د. مفيق دوشق (بحث: دور اللغات القومية في الدراسات العليا والبحث العلمي) مجلة مجتمع اللغة العربية الأردني عدد (27) صفحة (119) وما بعدها.
38. د. عبد القادر المهيري، من قضايا العربية في عصرنا مجلة المعجمية صفحة (8)، جمعية المعجمية العربية بتونس، العدد 1، 1405هـ / 1985م.
39. تنمية اللغة العربية في العصر الحديث صفحة (52)، من مقال "العربية والتيارات الفكرية المعاصرة" للدكتور الحبيب الجنحاني.
40. د. سامي حمارنة، تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، صفحة (56 – 58) المجلد الأول.
41. من كتاب "دراسات في اللغة والحضارة" مقالة "دور اللغة في تماسك الأمة، صفحة (34)، للأستاذ الحبيب المخ.
42. نفسه صفحة (34).
43. علم النفس اللغوي دكتورة نوال محمد عطية، صفحة (20).
44. نفسه صفحة (7).
45. نفسه، صفحة (20–21) (بتصرف.
46. د. محمد حسين الصفورين كلمة في تعريب العلوم مجلة اللغة العربية لااردني، عدد (27) صفحة (53).
47. أنظر انباً من التقرير وخلاصته في: "في سبيل العربية" للدكتور محمد هيثم الخياطن صفحة (20 – 21).

48. نفسه (30).
49. نفسه (32).
50. نفسه
51. الاستاذ الحبيب المخ، دور اللغة في تماسك شخصية الأمة، من كتاب دراسات في اللغة والحضارة صفحة (24) وما بعدها.
52. د. محمد هيثم الخياط، في سبيل العربية، (29).
53. من ذلك مثلاً: معهد الحبيب بورقيبة للغات الحية، ومركز اللغات في الجامعة الأردنية، ومركز اللغات في جامعة اليرموك، وبعض المراكز في المغرب وغيرها من البلاد العربية، إضافة إلى اهتمام بعض المؤسسات والمجامع العربية الجدى في العناية بهذا الفن.

**مراجع البحث**


- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د. نايف خرما، الكويت 1978م، سلسلة عالم المعرفة، عدد (9).
- تأملات في اللغو واللغة، محمد عزيز الحبابي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1980م.
- تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، د. سامي حمارنة– المجلد الأول – منشورات جامعة اليرموك – إربد، الأردن 1406هـ، 1986م.
- تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام، د. وليد محمد مراد، دار الرشيد بيروت، ومؤسسة الإيمان بيروت، ط1، 1404هـ / 1984م.
- تنمية اللغة العربية في العصر الحديث (دراسات الملتقى الرابع لابن منظور) قفصة من 22 – 25 إبريل 1976. وزارة الشؤون الثقافية بتونس 1978، منشورات الحياة الثقافية.
- دراسات في اللغة والحضارة (قدمت في ملتقى ابن منظور 1974)، وزارة الشؤون الثقافية بتونس 1975م، منشورات الحياة الثقافية، بتونس 1975.
- سر الفصاحة، الخفاجي، تحقيق عبد المتعال الصعيدين مطبعة محمد صبيح، 1969 القاهرة.
- علم النفس اللغوي، للدكتورة نوال محمد عطية، مكتبة لأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1982.
- في سبيل العربية، د. محمد هيثم الخياط، دون تاريخ أو طبعة أو ناشر.
- في فلسفة اللغة، كما يوسف الحاجن بيروت 1967م.
- اللغة والحضارة، د. إبراهيم السامرائي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977م.
- مجلة مجتمع اللغة العربية الأردني، عدد 27، كانون الثاني – حزيران 1985م، عمان – الأردن. مقال "دور اللغات القومية في الدراسات العليا والبحث العلمي" للدكتور مفيق دوشق. ومقال "ملة في تعريب العلوم" د. محمد حسين صفوري.
- مجلة المعجمية، جمعية المعجمية العربية بتونس، العدد (1) 1405هـ / 1985م، تونس.